المحاضرة الأولى: الآداب العالمية: المفهوم والمصطلح

تمهيد:

شهدت أوروبا مطلع القرن العشرين تزاحم سيل من المصطلحات الأدبية والنقدية التي تدرس الظاهرة الأدبية، وتتبّع تطوّرها، ونشأ تبعا لذلك خلاف كبير بين الباحثين، والدّارسين في رسم حدودها تبعا لاختلاف رؤاهم، ومعارفهم، وتوجهاتهم، ومن هذه المصطلحات: الأدب العام، الأدب المقارن، الأدب الإنساني، أدب الأقلّيات، عالمية الأدب، الأدب العالمي، عولمة الأدب،...إلخ.

أوّلا– مفهوم الأدب العالمي:

تلخّص كلمة" الأدب العالمي " حيزا جغرافيا كبيرا، وتختزل فضاء زمانيا واسعا، وتتكوّن من اجتماع كلمتين هما الأدب، والعالم، حيث تعبّر الأولى منهما عن ذلك الفنّ الجميل الذي يتناول قضايا الإنسان المختلفة في أمّة من الأمم، أمّا الكلمة الثانية(العالمي)، فتدلّ على حيز مكاني مفتوح، وغير مقيّد، كما تعبّر عن مفهوم الهيمنة والانتشار زمانا ومكانا.

وعليه يمكن القول إنّ الأدب العالمي هو حصيلة الإنتاج الفكري والأدبي لشعوب وثقافات في فترات مختلفة، أو هو ذلك النتاج التعبيري الذي يشمل العالم بأسره، ويرتبط بجملة من العوامل التي تجعله كذلك منها:

– النطاق الجغرافي والانتشار– القيمة الأدبية والفنية– إنسانية العمل وشموليته.

ثانيا– نشأة المفهوم وتطوّره:

أ/ عند الغرب:

تتفق معظم الأبحاث والدراسات التي تناولت مصطلح الأدب العالمي أنّه نشأ في ألمانيا أوّل الأمر، حيث استخدمه " غوته " عام 1827م، الذي أشار بعد اطّلاعه على أدب الهند، والشرق الأقصى، ودراسته الأدب العربي والفارسي، أنّ الاعتراف بالآخر يعدّ مفتاحا لفهم الأدب العالمي، فهو يمثّل بذلك رؤية إنسانية منفتحة على العالم، وقد انطلق في فكرته هذه من واقع الثورة الصناعية، وما رافقها من تطوّر في وسائل النقل، والاتصال، والطباعة، والنشر، ونموّ المبادلات التجارية بين الشعوب، حيث أسهمت هذه العوامل في انتشار الأفكار وانتقالها، وخروجها من حدودها الإقليمية الضيّقة إلى نطاق أوسع.

ويرجع سبب ظهور المصطلح في ألمانيا أوّلا إلى تطوّر الدراسات اللغوية والتاريخية، حيث كانوا يلخّصون تاريخ الأدب بعامة، أو تواريخ الآداب الأوروبية منذ العصور الوسطى.

وقد استفاد الزّوار الفرنسيون من فكرة غوته، ونقلوا هوسه المعرفيّ إلى بلادهم، فتهيّأت فرنسا لاستقبال المفهوم الجديد الذي يخرج بها من الفردية والانعزالية إلى نطاق أوسع، وأشمل، أبرزهم: "مدام دوستايل" التي نقلت الفكرة من ألمانيا إلى فرنسا من خلال كتابها (عن ألمانيا) في ، الذي طرحت فيه قضايا جوهرية، أهمّها:

– الأدب في علاقته بالنظم الاجتماعية– بيان تقدّم العقل البشري على مرّ العصور– ضرورة الانفتاح على الآداب العالمية المختلفة– ضرورة معرفة العلاقات بين الآداب العالمية– دراسة الآداب في لغاتها الأصلية.

وبهذا كان لها الفضل الأوّل في تعريف الفرنسيين بالأدب الألماني مع عنايتها به ببيان وجوه الشبه والاختلاف بينه، وبين الأدب الفرنسي، ممّا كان له خير أثر على الأدب الفرنسي، وهي دعوة منها للخروج من نطاق الأدب الواحد.

ويتضح من خلال ما تقدّم أنّ مصطلح الأدب العالمي نشأ في ألمانيا، وانتقل إلى باقي الأقطار الأوروبية، ويتبيّن أنّ صياغة حدود المصطلح، وماهيته كان في نطاق نشأة وتطور الأدب المقارن.

ب/ عند العرب:

تبنّى الدارسون العرب مصطلح الأدب العالمي انطلاقا من الطرح الغربي، وارتبط بالدراسات المقارنة من خلال الباحثين والدارسين في هذا المجال، منهم: " محمد غنيمي هلال " الذي يختار مصطلحا بديلا عن الأدب العالمي هو: " عالمية الأدب " حيث يعرّفه بقوله:" عالمية الأدب هي خروج الآداب من حدودها القومية طلبا لكلّ ما هو جديد مفيد، تهضمه وتتغذّى به، واستجابة لضرورة التعاون الفكري ".

فعالمية الأدب في رأي غنيمي هلال تأثر أدب قومي بأدب قومي، أو بآداب قومية أخرى، فعندما يتمّ التأثر بين أدبين قوميين، فإنّه يكون ثنائيا لا عالميا، وإذا ما تمّ بين أدب قومي معيّن، وعدّة آداب قومية، فإنّ هذا التأثير لا يتحوّل بالضرورة إلى ظاهرة عالمية، لذلك يرفض الباحث اصطلاح الأدب العالمي، ويستبدله باصطلاح عالمية الأدب.

ثالثا– علاقة المصطلح بالأدب المقارن:

أشار عالم الأدب الفرنسي " فيلمان " عند إلقاء محاضراته إلى علاقة الأدب الفرنسي بالآداب الأوروبية الأخرى، فنادى بظهور نوع جديد من الدراسات الأدبية أصبح يعرف بالأدب المقارن، حيث انطوى هذا النوع من الدراسات الأدبية على إطلال إلى ما وراء حدود الآداب القومية عبر استقصاء تفاعل تلك الآداب فيما بينها، وتأثّر بعضها بالبعض الآخر.

ويتضّح من خلال هذا الطرح أنّ حدود الأدب العالمي صيغت انطلاقا من حدود الأدب المقارن، أي تجاوز الأدب القومي، لكن مع التركيز على قوّة هذا الأدب (الأوروبي) ومركزيته.

رابعا– بين الأدب العالمي وغيره من الاصطلاحات:

يتداخل مصطلح الأدب العالمي مع عدّة مصطلحات بعضها وليد ظروف نشأته وتطوّره، وبعضها الآخر ناتج عن التطوّر الذي عرفته الدراسات الأدبية والنّقدية، وكذا انفتاح الدراسات الأدبية على المناهج، والعلوم الإنسانية المختلفة، من بين هذه المصطلحات: الأدب المقارن، الأدب الإنساني، الأدب القومي، العولمة والعالمية، عالمية الأدب... إلخ

أ– الأدب العالمي والأدب المقارن:

الأدب المقارن فنّ المختلف، في حين الأدب العالمي فنّ المؤتلف، بمعني يبحث الأوّل في التأثيرات المتبادلة التي نشأت في الأصل عن التباين، بينما يبحث الثاني عن نواحي التوافق المشتركة باعتباره جملة أرقى الأعمال الأدبية، والرّوائع الخالدة، المعترف بها وبقيمتها عالميا، حيث يجمعها من مختلف الآداب تحت مظلّة أدب عالميّ واحد. من هنا نجد أنّ الدراسات المقارنة تبحث في التأثيرات الناتجة عن الاختلاف، بينما يبحث الأدب العالمي في الظواهر العالمية المختلفة، وعليه لولا الدراسات المقارنة ما استطعنا التعرف على آداب عالمية مختلفة.

ب– بين الإنسانية والعالمية:

ترتبط الإنسانية في جوهرها بالعالمية، حيث الإنسان هو مركز الكون بصفته يحمل المشترك بين الجغرافيات المتعدّدة، والثقافات المختلفة، والحضارات المتباينة، وقد تكون العالمية خطوة إلى الإنسانية، كون الإنسانية مظلّة كبرى تستوعب كلّ ما تحتها، وقد يكون الشعور بالعالمية وسيلة لتحقيق الإنسانية، وبذلك تكون الإنسانية جامعة شاملة، وتتحقّق بشعور الإنسان بعالميته وشموله، بالتالي فعالمية الإنسان مبدأ يحثّ على احترام الإنسان وتقديره، وإعلاء شأنه، لذا يغدو مصطلح الأدب العالمي مرادفا لمصطلح الأدب الإنساني للدلالة على الأدب الذي يعنى بالقضايا الإنسانية العامّة.

ج– بين الأدب العالمي والأدب القومي:

تمّ تناول مصطلح الأدب القومي للدلالة على أدب شعب من الشعوب بإطار تأثيره، وانتشاره في المحيط القومي المحدود لذلك الشعب، بينما يدلّ مصطلح الأدب العالمي على الأدب الذي يتحقّق له تأثير وانتشار خارج حدود المحيط القومي الذي ولد فيه، حيث يهتمّ بالآداب ذات المساحة المحدودة، ويركّز على أدبائها البارزين فيضعهم في مكانهم من التطور الأدبي العام، ويخرجهم من نطاق أدبهم الضيّق إلى نطاق أوسع وأشمل.

د– بين العالمية والعولمة:

إنّ طبيعة مفهوم العالمية تعني العلاقات البشرية المعترفة بوجود أمم وشعوب لها هوياتها، ولغاتها، وتراثها، وهذا الوجود خلق ليصنع تلاقح الثقافات، وتجاذب المفاهيم والأفكار الهادفة لخير البشرية جميعا، فالعالمية إثراء للفكر، وتبادل للمعرفة، مع الاعتراف المتبادل بالآخر دونما فقدان للهوية الذاتية، او مساس بها.

بينما طرحت العولمة من قبل الرأسمالية العالمية لتحلّ محلّ جميع أشكال الخوصصة، والتنوّع، والتمايز، ولتحذف حدود الجغرافيات الوطنية، والقومية، والعقيدية، حتّى نصل من خلالها إلى ذوبان الإنسانية في إطار لا تارخ فيه ولا تراث، ولا عقائد ولا مستقبل. بالتالي يكمن الفرق بين العالمية والعولمة في كون الأولى يمكنها التعايش مع الحدود، لأنّها ترى في الاختلاف تنوّعا وجمالا، بينما يظلّ التعايش بين العولمة والحدود محدودا.

هـ– الأدب العالمي وعالمية الأدب:

إنّ المقصود بعالمية الأدب أن تتجاوز الآداب القومية حدودها اللغوية، والقومية إلى الآداب لتتأثّر بها أو تؤثّر فيها، ثمّ تعود لمعالجة الأدب القومي، أي انتقاله من وسطه الأدبي إلى أوساط أخرى عن طريق الترجمة.

أمّا الأدب العالميّ فهو الأدب الذي ارتقى إلى مستوى العالمية، وترجم إلى كثير من لغات العالم، وحقّق شهرة واسعة انطلاقا من خصائصه الفنيّة، والأدبية، وتعبيره عن الإنسان وقضاياه المختلفة.

و– الأدب العام:

يعني في الأصل فنّ الشعر، أو نظرية الأدب ومبادئه، حيث يدرس الحركات الأدبية التجديدية التي تتخطّى المعايير القومية، وهي تشير أحيانا إلى الاتجاهات الأدبية، أو المشكلات، أو النظريات ذات الاهتمام العام، أو الجماليات.

ز– أدب الأقليات:

هو كلّ أدب أنتج بلغات أقليّة غير اللغة المهيمنة، في نطاق جغرافي محدد، ويشترط النقاد ضرورة اهتمام موضوعات هذا الأدب بالسياسة، لكن هذا المعيار اللغوي سرعان ما يزول لتصبح مفردة الأقليّة لا تشير إلى آداب بعينها، بقدر ما تعني استجماع جملة من الشروط لكلّ أدب في صميم ما يسمّى" الأدب السائد "، لأنّ الأدب في البدء ما هو إلّا صوت كلّ الأقليّات، مع اختلاف مستوى، وقوّة حضوره، وتوزّعه على الشفوي، والمكتوب، والإيحائي.

المصادر والمراجع:

– أحمد أمين وزكي نجيب محمود، قصة الأدب في العالم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (دط)،1943، ج1.

– عبده عبود، الأدب المقارن: مشكلات وآفاق، من منشورات اتحاد الكتّاب العرب، (دط)، 1999.

– جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979.